

كتب بالعربية

للسيطرة على التوازن بينها، ثم "المنذر بن الحارث وحظه العاثر"، وأخيراً "النعمان بن المنذر وعودته".

كشفت الباحثة زهران، عبر سعيها لتتبع تاريخ وأصول العائلات المسيحية في رام الله في فلسطين، عن فترة مغيبة من التاريخ العربي الذي وقع ضحية الجغرافيا والتاريخ بسبب وجوده بين حضارات متنافسة زمانياً ومكانياً. هذا هو الكشف الذي يتناوله الكتاب، ومن هنا عنوانه "الغساسنة يبعثون".

لقد أهمل تاريخ الغساسنة لعدة أسباب ذاتية وموضوعية: أمّا الذاتية فهي أن قبائل غسان العربية - وهي وارثة حضارات البتراء وبصرى الشام وتدمر، إن من ناحية التحالف أو الصراع مع الدولة البيزنطية، والتي استوطنت المنطقة الممتدة من العقبة (الأردن حالياً) إلى محافظة البلقاء والجولان الحالي وصولاً إلى بصرى الشام وتدمر فأفاميا وسط الصحراء، أي

الغساسنة يُبعثون*

ياسمين زهران

عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١٤. ٢٦٨ صفحة.

يكتشف

قارىء
كتاب

ياسمين زهران الصادر حديثاً باللغة العربية مترجماً عن الإنجليزية، شدة الشبه بين الأوضاع التي عاشها الغساسنة في القرن السادس الميلادي الذي سبق مرحلة ما قبل الفتح العربي لبلاد الشام، والأوضاع الحالية التي يعيشها العالم العربي والصراع الجاري على أرضه من طرف القوى الإقليمية والعالمية وتحالفاتها المحلية، ومفارقات ذلك المشهد حينها والآن. وعلى الرغم من أننا لسنا من دعاة "التاريخ يعيد نفسه"، فإنه لا بد من

الاعتراف بأن منطقة بلاد الشام والصراع على سورية، شكلاً عبر التاريخ موضوعاً كان ولا يزال يكتسب أهمية كبرى، ذلك بأن المنطقة هي عقدة اتصالات وطريق للقوافل على مر الزمان، فضلاً عن كونها مصدراً أو ممراً للأفكار والهويات المتصارعة للسيطرة على هذه المنطقة المفصلية. لهذا كله لا يُفاجأ قارئ كتاب زهران بكمية الأحزان والإحباطات التي استولت على الشخصيات التاريخية أبطال الكتاب بدءاً من جبلة بن الأيهم "أبو الأحزان"، إلى "حارث العوالم الثلاثة" ومحاولاته المستمرة

* هذا الكتاب بالإنجليزية بعنوان: *Ghassan Resurrected*، وترجمته إلى العربية كارول خوري.

طريق القوافل القديم - أهملت تسجيل تاريخها، حتى في السجلات الكنسية التي عادة ما تُحفظ في الكنائس وتُبقي على سجلات الأنساب، ولهذا تلحظ المؤلفة أن المؤرخين البيزنطيين (الروم) عندما كتبوا تاريخ المنطقة، اعتمدوا على سجلات اللخمييين في الحيرة، وذلك لعدم وجود أي سجلات مكتوبة للغساسنة، الأمر الذي تعتبره الباحثة إجحافاً بحقهم؛^٢ أما الأسباب الموضوعية التي ساهمت في إهمال تاريخ الغساسنة خاصة، وتاريخ القبائل العربية المسيحية عامة، فهي وقوعهم على أطراف عوالم ثلاثة، اثنان منها هما الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية اللتان تصارعتا في القرن السادس الميلادي فيما بينهما، وشكل الغساسنة العرب حلفاء إحداهما (الإمبراطورية البيزنطية - أي تركيا واليونان الحالية)، بينما شكل المناذرة - بنو لخم - حلفاء الأخرى (الإمبراطورية الفارسية). ولا تُخفي الباحثة أن الصراع بين الإمبراطوريتين أدى إلى إضعافهما حتى أتى الفتح الإسلامي الذي يمثل

العالم الثالث، ليُقصيهما عن المنطقة ويشتت مُلك الغساسنة. استخدمت الباحثة أسلوب الرواية بلسان أبطال البحث لتقريب موضوع جاف محوره التاريخ القديم المستند إلى عيون المصادر القديمة وذلك، كما أسلفنا، لندرة المصادر الموجودة بشأن موضوع بحثها، فهي في مقدمة الكتاب توضح أنه "ليست هذه الدراسة تاريخاً متخيلاً وإن كانت مروية على لسان ست من الشخصيات التاريخية"، كما أنها "عمل بحثي يستند إلى مصادر قديمة وحديثة وإلى نقوش ومكتشفات أثرية، وإلى نواميس شفهية"، فضلاً عن العديد من المقاطع الشعرية لحسان بن ثابت والنابغة الذبياني، إثباتاً لما هو متوارث من أن الشعر هو "ديوان العرب"، وفق فيليب حتى^٣. وهي بهذه الوسيلة تنجح في خلق نص يفتح كوة في إدراك القارئ الجاد، ويحثه على الاستزادة من الموضوع عبر البحث في موسوعات وخرائط تاريخية وكتاب الأغاني وغيرها من المصادر القديمة لتوكيد أو نفي ما أطلع القارئ عليه.

فالكاتبة هنا تخلق علاقة بقارئها، إذ إن المهم هو إعادة اكتشاف وإدراك ما خفي علينا سابقاً، وهذا هو هدف الباحثة من استخدامها فعل "يُبعثون" في عنوان الكتاب. تلاحظ الكاتبة "تشبّت الغساسنة القوي بهويتهم العربية وبعصبيتهم الشديدة"، وذلك عبر ارتباطهم بمجموعة من التحالفات مع القبائل العربية الأخرى، إن في الجزيرة العربية أو خارجها. كما أنهم لم يتبنوا الأسماء اليونانية، وإنما حافظوا على أسمائهم العربية (جيلة؛ الحارث؛ النعمان؛ المنذر)، والتي إن تدل على شيء فعلى استقلالية الشخصية البدوية الأصيلة، فضلاً عن حبهم للشعر والشعراء والأدب العربي، فقد كانوا ينظّمون مواسم شعرية يتردد عليها أهم شعراء تلك المرحلة، مثل حسان بن ثابت والنابغة الذبياني. وقد وقف حسان بن ثابت لاحقاً على أطلال الغساسنة منشداً:

لَمِنَ الدارِ أَقْفَرْتُ بِمَعَانِ

بين أعلى البرموكِ والصُمّانِ^٤

للحارث، بسبب المجهود الذي صرفه في محاولة ضبط تلك العوالم. وهنا تتساءل الباحثة: هل كان ذلك مؤشراً إلى الحاجة إلى نشوء عقيدة عربية خالصة؟ ووفقاً لعرفان شهيد، "كان الغساسنة بناءً عظاماً"،^٦ ومن أهم آثارهم إلى الآن برج الدير في قصر الحير الغربي بين دمشق وتدمر، والإيوان في الرصافة، ودير مار سابا في فلسطين والذي يُعتبر من أهم منجزاتهم، وهو معزل القديس يوحنا الدمشقي، وفيه كتب أهم كتبه "ينبوع المعرفة".^٧ كما أن قرية دير غسانة في فلسطين سُميت باسمهم.

سهير حداد
باحثة فلسطينية

باستعادة الجزء الغربي من الإمبراطورية. حافظ الغساسنة، على الرغم من تحالفهم مع الإمبراطورية البيزنطية، على استقلاليتهم الدينية عبر تبنيهم المذهب المونوفيزي المسيحي، بينما كان مذهب الإمبراطورية هو مذهب الطبعيتين الخلقدوني. فقد أدرك ملوك الغساسنة أنهم بتمسكهم بكنيسة "مستقلة إلى حد ما عن كنيسة الروم"، إنما يحافظون على استقلالية الشخصية العربية وعدم ذوبانها في الهوية الشاملة لإحدى أكبر الإمبراطوريات آنذاك. ولربما يعطينا ملوك الغساسنة درساً في الأحلاف وعدم الانسحاق الكامل أمام القوى العظمى والأقدار الصعبة، ومن هنا أتى لقب "حارث العوالم الثلاث"

وإذا كانت العربية والشعر قد شكّلا جانباً واحداً من هوية الغساسنة الأصلية، فإن الجانب الآخر هو تمسكهم بالروح القتالية، وعسكريتهم الشديدة المرافقة للعصبية البدوية كحبهم للأحصنة والفروسية و"المحافظة على التقليد العربي القديم في القتال". فهم اعتمدوا على "سرعة أرجل خيولهم، وحتى حين يحاصرون، فليس بالإمكان الإمساك بهم، ويتفوقون على عدوهم بالحيلة والدهاء حين التفهق".^٨ إن تلك الأساليب والممارسات العسكرية كلها، جعلت من الغساسنة عنصراً مهماً لإمبراطورية الروم البيزنطية في الحفاظ على الحدود الشرقية في مواجهة الإمبراطورية الفارسية، وذلك لانشغال الروم

المصادر

- ١ انظر صفحة x من مقدمة المؤلفة في النسخة العربية، والكتاب هو آخر جزء من رباعية للباحثة عن العرب قبل الإسلام.
- ٢ المصدر نفسه.
- ٣ فيليب حتّي وإدورد جرجي وجبرائيل جبور، "تاريخ العرب" (بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ٢٠٠٩)، ص ٧٧.

- ٤ الصمّان، بحسب المترجمة، هي مواضع في أكناف دمشق، ص ١١.
- ٥ انظر مقدمة المؤلفة ص ix.
- ٦ عرفان شهيد، "المسيحية قبل ظهور الإسلام"، في: "المسيحية عبر تاريخها في المشرق" (بيروت: مجلس كنائس الشرق الأوسط. برنامج الدراسات والأبحاث، ط ١، ٢٠٠١)، ص ٤٣٢.
- ٧ المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

سيرة جابي برامكي وتجربته في جامعة بيرزيت

(١٩٢٩ - ٢٠١٢)

عبد الرحيم الشيخ

٣٧٥ صفحة ١٢ دولاراً

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بترول شرق المتوسط: الأبعاد الجيوسياسية

تحرير: وليد خدوري

١٦٣ صفحة ٨ دولارات